المسرح الفرنسي/ سماته الادبية، واهم كُتّابه: مدرس المادة: د. عمر جنداري

من خصائص الذهن الفرنسي ميله الى رد مسائل الحياة والفن للمنطق ولمجموعة منظمة من القواعد والتعليمات، فمنذ عام ١٤٠٢حصلت جماعة تدعى (الأخوة في الآم المسيح) على احتكار تقديم العروض المسرحية في باريس، وهي احدى الأخويات التي كانت تحمل كلها نفس الاسم وتضم في مناطق مختلفة المشتغلين بالتمثيل من الصنّاع واصحاب الحرف المختلفة، ومكنّهم هذا من التحكم في تطور المسرح بل وادى بهم احياناً الى ان يكونوا عقبة في سبيل هذا التطور، ولما بدأ تأثير عصر النهضة ينمو ويقوى ظهرت جماعة اخرى تدعى (البلياردو) والتي كانت جماعة ثرية جداً مكنها من فرض سلطتها المطلقة على الكتابة المسرحية وأملت ضرورة الالتزام بالقواعد الكلاسيكية كما فهمتها، وتطورت هذه الصورة من الكلاسيكية الجديدة في الكتابة المسرحية حتى بلغت اوجها مع تراجيديات (راسين و كورني) ومع كوميديات (موليير) حيث لم يظهر المسرح الكلاسيكي في فرنسا عام١٦٣٠م الا معهما إذ تمكنا من تحطيم قيد الوحدات الثلاث الذي فرضته الكلاسيكية التقليدية على الفن والأدب في عصرهما، وضماناً لوجود أشكال نبيلة للمسرح تم وضع قواعد للفنانين منها استخدام التراتيل الدينية وآداب السلوك الذي لا يخرج عن عادات المجتمع الفرنسي.

ومع ذلك فإن هذا الاتجاه لم يسيطر سيطرة تامة على العصر كله حيث ظهرت في باريس دعوة لخلق ادب قومي كمحاولة للنفاذ الى مكنونات الاذواق وابتكار المعايير الثابتة لأحكام النقد، وتحقق النجاح الذي حالف هذه المحاولات بواسطة المكانة المرموقة التي احتلتها الثقافة الفرنسية في دول اوربا، إذ كان كتّاب فرنسا هم النماذج الادبية الممتازة للمؤلفين في انكلترا والمانيا وروسيا وصارت باريس مركز النشاط الثقافي وكان من اهم كتّاب المسرح الفرنسي في القرن الثامن عشر (بومارشيه) الذي كتب بعض المسرحيات الحادة مثل (حلاق اشبيلية) و (زواج فيجارو) والذي كان دقيق في تعريفه لمهمة المسرح الاجتماعي فقد كتب يقول: (اذا كانت الدراما صورة صادقة لما يحدث في المجتمع، فالاهتمام الذي تثيره فينا يجب ان يكون نفس الاهتمام الذي تثيره ملاحظة اشياء حقيقية، فلا يتسنى للمسرح ان يثير فينا اهتماماً حقيقياً الا اذا قامت في مقاعد المتفرجين وبين ما يحدث على خشبة المسرح علاقة حقيقية، وهذه العلاقة يجب ان تكون بين الرجل والرجل لا بين الرجل والملك، وكلما كانت معاناة الرجل الذي على الخشبة قريبة من معاناتي، وكلما كانت طبقته الاجتماعية قريبة من طبقتي كلما ازدتُ احساساً به).

بيير كورني (١٦٠٦- ١٦٦٤) حياته – ادبه – انجازاته المسرحية:

ولد كورني في مدينة (روان) الفرنسية، كان متفوقاً في المدرسة لا سيما في اللغة اللاتينية، نال جوائزعديدة لتفوقه في الشعر الفرنسي، ثم درس القانون وعُين محامياً عام ١٦٢٤ وشغل وظيفة محامي ملكي، وبالرغم من دخله الضئيل جداً الا ان عمله هذا حققّ له الفرصة للكتابة عن الكوميدية فكتب (ميليت) التي مُثلّت في باريس ولاقت نجاحاً كبيراً، كانت مدينة (روان) وسطاً ملائماً لتفتّح الشاعر وكان اهلها يتذوقون المسرح حيث أقدمت تلك المدينة بين عامي١٥٦٦-١٦٣٠ بطباعة اكثر من سبعين مسرحية تراجيدية الأمر الذي ساعد كورني على قراءة المسرحية والكتابة للمسرح، فقدم عام ١٦٣٣مسرحية (الارملة) وهي كوميدية عرّف فيها الملهاة بانها صورة لأعمالنا وكلامنا، بعد ذلك قدم مسرحية (البراءة المحررة) وهي من نوع (التراجي كوميدي) اشتهرت رغم رداءتها، ثم عاد الى كتابة الكوميدية التي تصوّر اخلاق الناس وعاداتهم فقدم (رواق القصر) و(الساحة الملكية) وتلاهما بملهاة (الوهم المضحك) ثم (الميدان الملكي) ولقد اثارت هذه المسرحيات اعجاب الناس لما تملكه من شعر مكنه نظّم عدة قصائد في تمجيد الملك لويس الرابع عشر، وقد اثار كورني انتباه (ريشيليو) الوزير الاول للملك الذي حاول ان يبرز في كتابة المسرحية كما يبرز في السياسة، فانشأ مكتبةً من الشعراء والمسرحيين يعاونونه في تأليف المسرحيات بينما كان يقوم بتزويدهم بالموضوعات.

وتعتبر مسرحية (السيد) ١٦٣٦ أول مسرحية امتاز بها المسرح الفرنسي والتي استطاع فيها كورني ان يمزج بين تصوير البطولة وتوفير عنصر الاثارة والشعر الجميل على نحو جعلها تنال نجاحاً كبيراً لدى الجمهور، غير انه عاد في هذه المسرحية فاغفل الوحدات الثلاثة كما فعل في اولى مسرحياته (ميليت) مما اغضب عليه الخاصة من المتأدبين الذين كان من بينهم (ريشيليو) نفسه، وتبدو العاصفة التي ثارت حول هذه المسرحية غير قائمة على سبب ما، فالمسرحية فيها شعر قوي رائع وتصوير فائق وجريء للشخصيات لذلك امتازت وصارت مؤلفاً عظيماً وتجربة ادبية لا يمكن اغفالها او اهمالها في فترة اراد الناس البحث عن الطريق السليم، وتدل مظاهر الامور على ان المؤلف التزم بالقواعد الكلاسيكية، فمن الواضح ان المسرحية وحوادثها دارت في اربع وعشرون ساعة، وان الحوادث جرت حول القصر الملكي، لكن الفصول الخمسة للمسرحية ازدحمت بالحوادث التي ترهف المشاعر بشوق شديد، ولم تنته المسرحية بفاجعة وانما انتهت بخاتمة سعيدة لذلك جوبهت مسرحية السيد بانتقادات عديدة لأنها انتهت على خلاف المأساة نهاية سعيدة، ومن

مؤلفات كورني الاخرى (بوليوكت) و(رودجين اميرة بارثيا) و(هرقيلوس) و(نيكوميد) والتي امتازت شخصياتها بخشونة التصوير.

جان راسين (١٦٣٩- ١٦٩٩) حياته – انجازاته المسرحية:

نشأ (راسين) في حي شعبي من احياء باريس، بعد موت أمه ارسلته جدته الى مدرسة دينية ليتلقى العلم فيها، حيث واظب على القراءة وتقدير اليونان وحبه لأدبهم، وبالرغم من اغلاق المدرسة ابوابها الا انه استمر بالقراءة وبتنظيم الشعر ليلتحق عام ١٦٥٨ وهو في التاسعة عشر من عمره بمدرسة لدراسة الفلسفة والمنطق وعلم الكلام وربط صداقه مع (لابونتين) اشهر الادباء الفرنسيين، كما تعرف على موليير وعدد كبير من المثقفين، وبعد وفاة جدته لم يجد مورد الا العمل فتقدم بقصيدة الى البلاط نالت اعجاب الناقد الكلاسيكي (بوالو) لتبدأ شهرته بعد ذلك حيث قدم مسرحية (الاخوة الاعداء) عام ١٦٦٤ والتي لاقت نجاحاً كبيراً، وفي العام التالي قدم (الاسكندر الاكبر) والتي فشلت فسحبها راسين وأتهم موليير بانه هو السبب في فشلها فحدثت القطيعة بينهما.

ظهرت في عام ١٦٦٨مسرحية (اندروماك) وشملتها دوقة (اورليان) برعايتها ومُثّلت في جناح الملكة الخاص وقابلها الجمهور بحماس شديد، وفي العام نفسه قدم راسين كوميديا (المحامون) التي سقطت وابعدت عن المسرح شهراً كاملاً الى ان طلب الملك ان يختاروا له مسرحية لمشاهدتها وكان بينها تلك المسرحية وضحك الملك حتى دمعت عيناه وحذا حذوه رجال البلاط فنجحت بعد السقوط وقابلها الجمهور بحماس، واثار هذا الحدث غرمائه من الكتّاب وهاجموه الا انه لم يهتم لذلك، قدم عام ١٦٦٩مسرحية (بريتانيكوس) وفي ١٦٧٣ قدّم افضل أعماله المسرحية وهي (بايزيد) وموضوعها غرامي وسياسي تخيم عليه اجواء الشرف بما فيه من قصور وعبيد واغتيالات وتلاها بمسرحية (دمتريدات) وثم مسرحية (افيجيني) واللتان لاقا نجاحاً كبيرا، وبلغ راسين قمة نجاحه في مسرحية (فيدرا) المأخوذة من مسرحية (فيدر) ليوربيدس، وتتركز قيمة المسرحية في شخصية فيدرا نفسها كصورة فريدة للحب الجارف الخطير وبالرغم من نجاحها الكبير الا ان راسين اعلن بعدها انه قد هجر المسرح والشعر ولم يعد يستطيع التأليف.

لقد منح راسين مسرح عصره مميزات ظهرت على زملائه للحال فلم يعتمد جمال شعره على قوة الالقاء وانما على الرقة والدقة، وانسجمت عباراته انسجاماً تاماً مع طابع العصر وامتازت بالتركيز وتمام الصقل، وامتاز شعر راسين المسرحي بالحيوية والتلقائية المعبرة عن الشخصية في عبارات مركزة كما اشارت بذلك اجيال عديدة من الممثلين الفرنسيين، وان اعظم عمل قام به راسين هو تطوير اسلوب خاص ملائم للميول الكلاسيكية المعاصرة، ومع ان عاطفة الحب لعبت دوراً هاماً في مسرحياته الا انه اعلن صراحة ان عامل الحب في المأساة عامل ثانوي بالنسبة للدوافع الاخرى، كذلك فتح افقاً جديدة حين اهتم ببطلاته بعيداً عن الصفات الخشنة كما في صورة (الكترا) التي قضى عليها الحقد و(ميديا) التي عذبها هجران زوجها لها، فكانت نساء راسين اكثر رقة في البناء لأنه عرف موهبته وعرف سبيله ومسلكه ووضوح وبساطة موضوعاته التي تتقدم بالتدريج نحو الهدف الذي تؤيده صور الميول والانفعالات والعواطف في الشخصيات، فكان لراسين حس طبيعي بالنظام وبالذوق السليم أظهره بأسلوبه وطابعه، وبمعالجته لموضوعات مستمدة من الكلاسيكيين القدامى، كذلك امتاز راسين بقدرته على اجتذاب الاهتمام والتوتر المسرحي بأبسط الوسائل، مبيناً ان الاشارة قد تحدث بالاقتصار على تحليل الحركة الباطنية تحليلاً دقيقاً، وهكذا ظهر راسين على المسرح بهذه الاساليب الجديدة التي يدين به المسرح النفسي الحديث.

جان باتيست بوكلان المُلقب بـ(موليير) (١٦٢٢- ١٦٧٣) حياته – انجازاته المسرحية:

سأل لويس الرابع عشر الناقد (بوالو) من هم المؤلفين اللذين برزوا في الكوميدية فأجاب على الفور وكان يقف الى جواره الكثير من النبلاء(مولاي لا اعرف الا واحداً وهو موليير) وبقيت هذه الكلمات الرأي السائد لدى الاجيال المتعاقبة، وموليير هو الاسم الذي اشتهر به كمؤلف وممثل ومدير فرقة وكان ابوه تاجراً ومن اسرة برجوازية وكذلك امه ابنة تاجر ماتت وما زال موليير صغيراً، ولم يلبث الاب ان تزوج من ابنة احد الاثرياء ولكنها ماتت ايضاً، كان بيته يمثل حياة البرجوازية في العصور القديمة والتي صوّرها موليير أروع تصوير في كوميدياته والتي كانت تعتمد آنذاك على التهريج وتلقى اقبالاً شديداً من التجّار والتلاميذ والجنود، وكان يشارك موليير في اغلب هذه المسرحيات، ولقد تلقى دراسته تحت اشراف الاباء اليسوعيين في العلوم الانسانية وتخرج من الكنيسة عام ١٦٤٠ وكان قد قرأ المسرحيات الرومانية لـ(بلاوتس وتيرانس) ليتأثر ويستمد بعض شخصياته منهما، مارس التمثيل وكوّن فرقة اطلق عليها اسم (المسرح الخالد) عام ١٦٤٤ ولم تكن الامور معه تسير في رفق فقد ازدادت سوءاً بازدياد ديونه فراح يجرب حظه في الريف حتى اصبح مديراً للفرقة عام ١٦٥٧، ثم عاد الى باريس وبدأ بتقديم مسرحيات من تأليفه مثل (الطبيب العاشق، الاطباء الثلاثة، المتنافسون، الطبيب المتحذلق، الطبيب الطائر، كيد المحبّين) وكلها من نوع

الفارس، ثم أُستدعيَ موليير للتمثيل في القصر الملكي عام ١٦٥٨ليقيم نهائياً فيه بأمر الملك، فأخذ يمثّل في مسرح (بوربون الصغير) وهو جزء من اللوفر قدم عليه مسرحيات مأساوية وملهاوية لمؤلفين عدة، وفي عام ١٦٥٩ مُثّلت له مسرحية جديدة هي (المتحذلقات) وهي اول مسرحياته في باريس ذات الفصل واحد، وتجلّت مقدرته هنا على تصوير العادات والتقاليد المعاصرة وعلى نقد الافكار السائدة، فلم يعد يقنع بالتلهية والاضحاك بل الى بعث جمهوره على التفكير وتقويم العادات، وموضوع المسرحية جديد لم يتأثر فيه بسابقيه، وفيه ينقد لأول مرة عادات العصر وتقاليده المجتمعية المعاصرة وولوعه بحب المظاهر والمبالغة ومجافاة الصدق.

وفي عام ١٦٢٠قدّم مسرحية (سجاناريل) وبها ثبتت مكانته لدى الملك الذي رغب في رؤيتها على المسرح مراراً مثنياً على موهبة موليير في الكتابة والتمثيل، كذلك قدم (مدرسة الازواج) مصوغة شعراً في ثلاثة فصول، يضع فيها موليير مسالة علاقة الزوج بالزوجة بين اللين والقسوة، وينتهي فيها الى ان الحرية والرقة خير للحياة الزوجية من العنف والشدة، وفي عام ١٦٦١ طُلِبَ من موليير ان يعد شيئاً بمناسبة اعياد الملك وفي خمسة عشر يوماً الف واخرج ومثل مسرحية (الثقلاء) وهي استعراض راقص من ثنايا الحدث وهي جديدة الطابع لعصرها، وقد راقت للملك برقة اشعارها ودقة ملحوظاتها، وظهرت أولى مسرحياته الكبرى في أواخر١٦٦٢وهي (مدرسة الزوجات) كملهاة برجوازية معاصرة، يلحظ فيها موليير تقاليد الاسرة وينقدها وشخصيات المسرحية حية دقيقة التصوير سيما شخصية (ارنولف) الذي يسخر ممن يعانون من خيانة زوجاتهم، وقد أدى نجاح هذه المسرحية الى ظهور اعداء موليير الا أنه أجابهم في نفس العام بمسرحية (نقد مدرسة الزوجات)، ثم مسرحية (مرتجل فرساي) وهما يحتويان على أهم أراء موليير في المسرحية ونقدها حيث عرضت هذه الآراء بطريقة مبتكرة، ظهرت فيها قوته المنطقية كرجل قانون بثقافته في نشأته، ورجل فن في حواراته وبراعة اسلوبه.

في عام ١٦٦٤ ظهرت له مسرحيتان من نوع المهزلة الراقصة (زواج بالإكراه) و(أميرة بأليد) وهما خليط من الشعر والنثر، وفي اواخر العام قدمت فرقته المسرحية الشهيرة (تارتوف اوالمنافق) وهي موضوع جديد في مسرحياته أراد ان يغيّر فيها مجالاته السابقة والتي تضمنت مسائل الاسرة وما يتصل بها من تقاليد، وفي هذه المسرحية ينتصر الدّجال الديني (تارتوف) على رب اسرة يدعى (اورجان) وشخصية تارتوف هي نموذج المرائي الذي يتلبس باسم الدين، وقد أثارت المسرحية على موليير عاصفة من الغضب من جانب رجال الدين الذين اوقفوا عرضها وكانت المسرحية آنذاك في ثلاثة فصول تنتهي بانتصار تارتوف على الاسرة وزواجه بابنة اورجان واستيلائه على ثروتها، أي تنتهي المسرحية نهاية مأساوية، وبعدها حاول موليير تعديل تلك المسرحية فزاد فيها فصلاً ثم اخر لتصبح خمسة فصول كمحاولة لتهدئة غضب خصومه فأنهى المسرحية بانتصار الاسرة ونجاتها بفضل الملك، ولم ينجح بكل ذلك ضد خصومه برغم رضاء الملك عنه وتعويضه عن هذه الهزيمة بتسمية فرقته (فرقة الملك) الا بعرض المسرحية اخيراً عام ١٦٦٩ بعد المصالحة بين الملك والكنيسة، حتى ليصف العرض احد المعاصرين له بان الجموع كانت تغامر بحياتها اختناقاً من شدة الزحام.

وقد بين موليير ميزة اخرى على براعته بسخريته من اطباء معاصرين بل من اطباء الاسرة المالكة عندما كُلّفَ بتأليف مسرحية لغرض تسلية الملك فقدم مسرحية (الحب طبيب) وهي استعراض راقص يسخر فيه من الاطباء، وقد اصبح الذي طالما يسخر من الاطباء بحاجة اليهم عندما مرض موليير قرابة شهرين، ليخرج بعد فترة بمسرحية (عدو البشر) التي يجمع نقاد العالم على انها خير مسرحياته بل تفوقها جميعاً، واذا كان موليير قد أثار فيها اعجاب الصفوة فقد كان ايضاً بحاجة الى اثارة اعجاب الجماهير ولذلك اخرج في نفس العام مسرحية حافلة بالمرح والسخرية من الاطباء وهي (طبيب رغم انفه) وفي عام ١٦٧١ اخرّج مسرحية تندرج في جنس المهزلة ليرضي بها ذوق الجمهور هي (مقالب سكابان) وفي عام ١٦٧٢ ظهرت اخر ملهاة له هي (النساء العالمات) فيها يسخر من ادعاء النساء بالعلم والفلسفة كما سَخَرَ من قبل من المتحذلقات والولوعات بالشعر والقصص المألوفة وفي نهاية ذلك العام توالت الكوارث عليه ففقد ثاني ابن له وهو طفل واخذت حظوة الملك تنحصر عنه، وكثرت الدعاوي في القضاء ضده وبدأت صحته تنهار بالكوارث والارهاق، وزاد من همه بعد ان عرف ان مسرحيته الاخيرة لم تمثّل بمحضر الملك وهي (مريض الوهم) عام ١٦٧٣ التي يتخلل الضحك فيها ضرب من الشعور بمرارة الحياة وعنائها، وفيها لم يعد يسخر موليير من اعداد الاطباء وتقاليدهم ولهجتهم، بل يضيق بإسفافهم في استغلال المريض وبدجلهم فيما يزعمون من علم، وفي رابع حفلة لتقديم المسرحية كان مجهداً واتم دوره مرهقاً، وعقب وصوله الى منزله انفجر له شريان فمات بعد ساعة، ومعروف انه دفن خفية ليلاً وبدون حفل جنائزي بسبب عداواتهِ، واحتراماً لذكراه اسس الملك لويس الرابع عشر مسرح (الكوميدي فرانسيس) الذي مازال يقدم مسرحيات موليير حتى الان.